أنهى تصوير أحدث أفلامه السينمائية «الأرض المجهولة»

المخرج غسان سلهب: مستقبلنا غامض.. حاضرنا تائه ولا أحد يجرؤ على العودة الى الماضي

النرجسية المزيفة والاعتداد الحقيقي بالنفس، يشكلان قسماً من طبيعة غسان سلهب العميقة وفكره المنفتح. انه مخرج سينمائي بالفطرة، ويشبه بطبعه فيلمه الوحيد الفريد الطويل، «اشباح بيروت» (١٩٩٨) حيث عبر فيه عن رأيه حول ضحايا الحرب.. فيلم، يشبه هذه المدينة التي تغري وتواصل اغراءها في الدرجة الاولى، في اسلوب كتابة غسان سلهب، وفي الدرجة الثانية في اسلوب تصويره: «لم اصنع فيلما عن الحرب، بل في الحرب. ليس عن لبنان، بل في لبنان» هكذا يلخص اليوم علاقته بهذا البلد حيث وصل اليه في عمر ١٢ سنة، بعد ان عاش جزءاً كبيراً من طفولته في دكار (السينغال) حيث ولد ورأى اول ربيع في حياته.

في جمهورية مثقلة بالدين، ومفلسة تماما، حيث السينما فيها «آخر هم» للمسؤولين، يدرك غسان سلهب فاعلية دوره، ويرغب في فضح هذه الحالة من الضياع التي يجد البلد فيها نفسه، حيث «الحرب انتهت بسبب بسيط، هو توقف القتال». لكن، هل انتهت فعلاً؟ ليس برأي غسان سلهب.. لقد ذهبنا الى تصوير فيلمه الجديد الذي كتب له السيناريو وينتجه ويخرجه سلهب، بعنوان موقت «الارض المجهولة».. ذهبنا مدفوعين بحب معرفة أحد الاشخاص النادرين الذين نجد فيهم امل السينما اللبنانية، ولا ينتمي للتيار المعهود، ولا للنوع المؤيد لعقيدة الصراع بين النور والظلام، الخير والشر او للشوفينية التي تبسط النظرة للأمور. المشهد، هو آخر مشاهد الفيلم، ويقع في منطقة «الباشورة». نرى الممثلة كارول عبود، والممثلة المبتدئة عبلة خوري تسيران جنبا الى جانب على طول السور المحيط بالمقابر، ويتم تصوير المشهد، كاميرا مركبة على سكة حديدي تسبق سير هاتين الشخصيتين اللتين تتهامسان بكلمات بالكاد يسمعها الناس الذين يشاهدون عملية التصوير. اما بقية فريق العمل، فيلقى مساعدة شرطي سير يحرص على الحفاظ على الشارع هادئا، إذ ان اقل ضجة آتية من خارج المشهد يمكنها ان تخرب شريط الصوت وتستثير غضب مهندس الصوت. سبق ان سببت «رياح الخمسين» التي هبت في ذلك اليوم الأحد في بداية الصيف، الكثير من القلق لدى مدير التصوير، وأدت الى تغيير العدسات، والصافي، الخ. كانت بعض اللقطات كافية بالنسبة الى غسان سلهب، الذي يعتمد ظاهريا، «الطريقة الهادئة» مع ممثليه، كي يصل الى اهدافه.

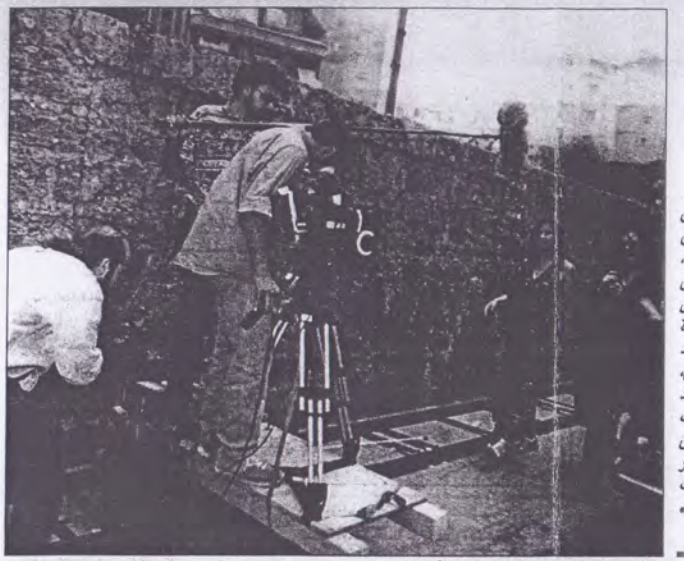

خلال تصوير «الارض المجهولة» عند سور الباشورة

اللقاء حصل في مكان غير مألوف: داخل سيارة إحدى الممثلات في الفيلم.. روى لنا انه بالأمس اصيب بالزكام، لكن هذا الأمر لم يمنعه من العمل.

بدأ بالقول: لم يكن فيلم «اشباح بيروت» يمتلك قصة بالمعنى الدقيق للعبارة.. كان قصة رجل يعود من الموت.

واضاف: في فيلمي الجديد، أقدم ثريا التي تعمل مرشدة سياحية، لكن الفيلم ليس قصتها حقا.. وانما أحداث القصة تجري من خلالها. أحاول وصف الحالة الغريبة التي يمر بها لبنان في فترة ما بعد الحرب، من خلال اصدقاء «ثريا»، وشخص يعمل في الاذاعة. ورغم ذلك، فإن لدى المخرج غسان سلهب خوفاً من الخطابات (بالمعنى السياسي للعبارة). اشرت اليه بأن فيلمه الاول لم يفلت من اكثر ما كان يخشاه وبمقته. رغم جهوده المبذولة للحؤول دون ذلك. اعتبر هذه الملاحظة إهانة، وطلب ان أذكر له مثلا على ذلك فورا، لكن سوء الفهم تبدد.

قال: اعني بكلمة خطاب، الدثرة» السياسية.. في فيلم «اشباح بيروت» لم يكن لدي رسالة لتقديمها، لكنني استطعت ان انقل للجمهور كل ما كان بداخلي.. لدي احتقار بلا حدود للخطابات ولكل هذه الادعاءات. كتابته السينمائية تراعي مقام الفرد في المجتمع، لكنها لا تستخدمه مطلقا بالمعنى المجازي.. برأيه، كل كائن عاجز عن ان يجسد افضل من شخصيته عينها: «عندما تتحدث ثريا تتكلم بإسمها.. سواء كانت هي، او هذا المهندس الذي يمحي، ثم يعيد ابتكار بيروت وراء شاشة حاسوبه الآلي، كذلك، شخصية عبلة خوري الناشئة بين الايمان والإلحاد.. انها شخصيات لا تذهب بعيدا في تجسيدها لدورها.. انا ضد استخدام الرمز والمجاز ويمكنك ان تصور انسانا ٢٠٠ الف مرة، ورغم ذلك سوف تظل هناك امور لا تستطيع الكاميرا ان تلتقطها. فضلا عن ذلك، لا ألحق شخصياتي طوال حياتها..»

كتب غسان سلهب السيناريو معتمدا على توسيع ملاحظات سجلها خلال سنوات عدة، واستمد الهامه من الواقع.. يقول: لمعت الفكرة شيئا فشيئا.. نسرين خضر وهي إحدى صديقاتي، وتعمل مرشدة سياحية، ذكرت لي المعطيات الاساسية، وبعد ذلك، تصرفت بحرية تامة مع الشخصيات الموجودة سابقا..

حتى لو كان سلهب يعتبر بأنه لم نقل بعد كل شيء، عن سنوات الصراع، غير انه يرى اليوم ان من المنطقي اكثر وضع سير احداث فيلمه في الحاضر، في وسط الوضع الاقتصادي المزعزع. يقول:

- لبنان متوقف عند الزمن الحالي ويتابع كلامه، مشيراً الى بأصبعه الى الريح التي كانت تكنس الغبار بطريق مرورها: المستقبل مشوش الوضوح بقدر هذا المشهد. وبالنسبة الى الماضي، فلا أحد يجرؤ على العودة اليه.

الحاضر هو، عادة، جسر بين الماضي والمستقبل بالضبط. حالة عابرة وليست نهائية. عندنا، هذه الحالة تقيم وتستمر. التصوير الذي بدأ منذ حوالي ثلاثة اشهر ونصف الشهر، استمر ٧ اسابيع، وزارت خلالها كاميرا غسان سلهب عدة مناطق بعيدة عن العاصمة (فقرا، نيحا، صور، وقسما من الجنوب)، لكنها أطالت المكوث في بيروت «الشديدة الحضور في هذا الفيلم...» بيروت، كحلقة تغير، مثل أفي تغير جلدها، لكنني لا اعلم اذا كان تغير جلدها حقا..» هكذا قال.

الفريق التقني مكون بأكثريته من لبنانيين.. سبق للبعض منهم ان عمل في فيلم «اشباح بيروت». اما مدير التصوير، ومساعده، بالاضافة الى مهندس الصوت، اتوا جميعهم من فرنسا من اجل تأمين حسن سير المشروع. فهل هناك اكثر اهمية من الصورة والصوت، بالنسبة الى فيلم، لتكون شريطا لازما من اجل ان يتم اختياره للاشتراك في المهرجانات العالمية؟ وكما هي الحال غالبا، نلاحظ وجود عدد كبير من الشباب يحتلون مختلف الوظائف التقنية في فريق العمل، فتصوير فيلم في لبنان يشكل مبادرة جيدة لتدريب الشباب ذوي الشهادات الذين تنقصهم الخبرة، اضافة الى ما يحتاج اليه الأمر من شجاعة وجنون، كما انه يلمع من «الشارع»، لبعض الوقت على الأقل، الحاطلين من العمل.. يعلق غسان سلهب: المشكلة في لبنان هي ان هناك القليل جدا من التصوير السينمائي. كمية التصوير هي التي تخلق الاحتراف، وبها ايضا يتعلق دخولنا الى نظام محدد جيدا، بالرغم من اننا يمكن ان نضجر داخل نظام محدد.

لا يشعر غسان سلهب بأي كره بالنسبة الى هامشية الصناعة السينمائية في لبنان ويرى ان صنع فيلم في هذه الظروف، يعني (بين مزدوجين) اكتشاف السينما مجددا: لنتكلم بصراحة.. المشكلات هي من النوع المادي. عندما نمتلك ميزانية كبيرة، ننهي تصوير الفيلم خلال ١٠ اسابيع بدلا من ٧. لسنا معتادين هذه الصناعة. لكن على الأقل خلال ١٠ اسابيع اجنب الجميع العمل على عجل كالمجانين. من الواضح ان الوقت هو العدو المعلن للمخرج، فهو يقول: اعي الامكانات الضعيفة المستخدمة، لكننا مرغمون على القيام بتنفيذ عدة لقطات، على أمل ان يحدث أمر ما غير متوقع». غني عن القول ان غسان سلهب لم يتلق اي مساعدة من وزارة الثقافة التي لا تزال، الى الآن، عاجزة عن تحديد الميزانية وتخصيص صندوق للدعم من اجل انتعاش السينما اللبنانية. لحسن حظنا ان فرنسا تنقذ الفنانين من الصمت السقيم، في بلد يمنح اكثر مما يسمح، ويستهلك اكثر مما ينتج.

يعلق سلهب قائلا: باستثناء بعض المستقلين، ليس لدينا منتجون مستعدون للاستثمار في افلام لبنانية، وهذا الوضع يضر بعلاقاتنا بالخارج، ويزعزعها. بسبب عدم توافر شركات انتاج، ذهب غسان سلهب للبحث عن ٧٠٪ من الميزانية في فرنسا.. يوضح قائلا:

- في فرنسا، هناك مجانين.. مثل القناة الفرنسية-الالمانية (Arte) التي تمتلك سياسة واضحة، وتتمثل في معارضة السينما الاميركية. انه رهان سياسي ملائم لنا ويساعدنا. حتى لو كان مبلغ المال الذي يقدم الى فيلم ناطق باللغة العربية ادنى من ذاك الذي يمنح الى فيلم ناطق باللغة الفرنسية. قبل بضعة ايام من نهاية التصوير، لا يزال غسان سلهب يأمل بزيادة الميزانية الصغيرة (٥٠٠ الف دولار) معتمدا على اشتراك بلد اوروبي بتقديم مساعدة لإتمام مرحلة ما بعد الانتاج. ان هذا العصابي الذي لم يحصل على اي دبلوم في الدراسات السينمائية، احتفظ بسر صنع «الكثير». من «القليل».

يقول: لا أحب ان يشعروا بالشفقة ازاء الأفلام القادمة من العالم الثالث.

يقطع غسان سلهب الحديث كي يبحث عنا عن منديل ورقي (كلينكس).. كانت مناسبة لوقف مسجلة الصوت المزعوجة من ضجيج دراجة نارية يرغب سائقها باخراج الشيطان من محركه.

عن مهنة المنتج، يقول سلهب:

- ليست مهنة أوثرها، لكن ليس لدي الخيار.. لو لم يكن الفيلم يخضع لرغبتي كمخرج، فلن يرى النور مطلقا. ينبغي ان يعي المنتج كل الوقائع. لا يمكننا البقاء منتظرين توافر الظروف الجيدة، فالزمن يمر ونحن نشيخ. حتى قبل البدء بعمل المونتاج، وكل مراحل ما بعد الانتاج التي سوف تتم في باريس لأسباب تتعلق بالتكلفة (فقط)، سلهب متحمسا لعرض فيلمه الجديد في مهرجان كبير.. فيلمه الاول «اشباح بيروت» لقي استقبالا جيدا من قبل الصحافة في الخارج، وهو استقبال لا علاقة له بـ«البهرجة» كما قال، رافضا الإقرار بأن استقبال فيلمه كان معتدلا كثيرا.. ويضيف بالقول: على اي حال، النقد لا يهمني سوى لأنه قادر على جلب المال للفيلم. عندما يغمرك النقاد بالمدائح، تفتح الطريق امامك، ويبدأ الاهتمام بك وبما تقوم به.. وتدعوك المهرجانات للاشتراك في فاعلياتها من دون ان يتساءلوا: من هو ذاك الشخص؟ برأيي ان للنقد جانباً «افيادياً». لقد اتى صحفي من صحيفة «لوموند» الى هنا ليغطي تصوير فيلمي الجديد، وهذا الصحفي هو ذاته الذي تناول فيلمي السابق. كي يختار ممثليه، بحث غسان سلهب خارج «المجتمع الفني».. باستثناء كارول عبود وربيع مروة، أتاح توزيع الادوار لوجوه جديدة لتخوض تجربتها الاولى في مجال التمثيل، سواء بالنسبة الى عبلة خوري، وليد صادق وكارلوس شاهين وعلي حسيني، الخ. فجميع هؤلاء كراكتيرات جديدة، سعى غسان سلهب لأن تكون قابلة لتأدية ادوارها بأحسن قدر ممكن.

يوضح قائلا: ليس لدي مشكلة في العمل مع ممثلين معروفين، لكنني افضل ان يتوافر لدي اناس لم يظهروا كثيرا، ولم تستهلك صورتهم او تتبدل عبر التلفزيون. لدى كتابتي للسيناريو، كنت افكر بـ«كارول» التي ادت دورا صغيرا في فيلم الاول. منذ مدة طويلة وانا الاحظ ان لديها شيئا ما خاص بها. انها فريدة. وانا احب الناس الذين ليسوا نماذج. عندما نراها، لا نستطيع ان نحزر بأنها لبنانية.. اكره الكليشيهات والفولكلور.

قبل انضمامه الى فريق عمله الذي يتأهب لتصوير المشهد الثاني في ذاك النهار، زوّدنا غسان سلهب على شكل خلاصة لكلامه، بتعريف صائب للسينما.. تعريف للسينما عموما.. قال: اعتبر انه خطأ كبير الاعتقاد ان الحياة والسينما هما الأمر عينه، فالسينما عالم آخر. لكن هذا العالم الآخر يتحدث عن حياة كل منا، وبعمق اكثر بكثير مما لو كنا نصنع بغباء نسخة عن الحياة.. الافلام التي تعيد انتاج الوجود ببلاهة لم تفهم شيئا من الفن. انه امر ادركه الوسم، بل وحتى التصوير الفوتوغرافي منذ مدة طويلة.. لا يمكن إعادة انتاج الحياة.

بعد هذه الكلمات، نزل غسان سلهب من السيارة، ادار لنا ظهره، واختفى في الضباب المغبر.

المثلة عبلة خوري

المخرج غسان سلهب

الممثلة كارول عبود

كارول عبود: شيء عظيم اصبح ملك الكاميرا

باقتضاب، علقت نجمة الفيلم على مسار السينما في لبنان. قالت:

- كنت اتمنى ان يكون هناك انتاج سينمائي اكثر.. بمعدل ٢ او ٣ افلام سنويا على الأقل، كي يكتشف الممثلون المتع المرتبطة بالسينما، المختلفة عن تلك التي يحصلون عليها عبر التلفزيون والمسرح. صحيح انها مهنة متعبة، لكن النتيجة تكون على مستوى الجهودة المبذولة.. العمل مع غسان مريح، انه شخص لذيذ يعرف كيف يحافظ على هدوئه، ويعرف ما الذي يريده. وهذا هو الأمر الأكثر اهمية. انه ايضا كاتب سيناريو افلامه وليس مجرد منفذ لمشروع. اما الأمر الآخر الذي لا خلاف عليه، فهو ان الفريق التقني والفني يعملان بانسجام كامل. خلال يومين، سوف ينتهي تصوير الفيلم. وانا حزينة.. مضت سنتان وانا اعيش مع هذا السيناريو وانتظر. كان هناك شيء ما من العظمة خلالها، اليوم لم نعد نملكه. اصبح مُلكا للكاميرا.

هوفيك حبشيان